القصيدة الصوفية الجزائرية الحديثة

استكناه الرصيد الدلالي والموضوعاتي

د.لعور كمال

جامعة الشلف

توطئة:

ظل الشعر زمنا طويلا تلكم الصياغة ذات التوقيع الموسيقى، ووحدة النظم التي تشد من أزر المعنى، وتجعله ينفذ إلى قلوب سامعيه ومنشديه[1] وإن كان هذا دأب الشعر المشرقي، فإن الشعر الجزائري خرج من نفس الصلب العربي الأصيل الذي ورث شعر الرستميين على يد بكر بن حماد، و سرعان ما جهر بطاقته و قوته مع الظاهرة المتفردة التي برزت في القرن التاسع عشر في شخصية الأمير عبد القادر.

و رغم أن هذا الشاعر لم يخلّف من القصائد إلا النزر القليل، و قد تبدو هذه الأخيرة مهزوزة لو وضعت تحت محك النقد و"لكن القصيدة الأميرية ظلت ملتصقة بلسان الشعب، و سمعه حتى دخل بها معركته الفاصلة"[2] فصار شعر الأمير انتفاضة للقصيد العربي في الجزائر أواسط القرن الماضي، و خفف من الفاقة الأدبية التي اجتاحت النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

و بهذا استفاق الشعر قليلا على خلاف الفترة التركية السابقة، بل شتان بين العالمين فإن كان الأدب في الأول يعيش على بقايا القشور العربية، أما الثاني فكادت أن تطمس فيه هذه القشور و المعالم[3] و بالفعل توارت جدة الشعر بعد الأمير إلى أن أذنت الظروف لنهضة إصلاحية عارمة اجتاحت كيان الأمة، و قد رعت الصحف هذه الإنتاج و سايرت تطوره شبرا بشبر حتى غدت الصحف ديوانا مفتوحا للشعراء الجزائريين و ساحة فيحاء للمبتدئين و المحترفين، و ظهر شعر إصلاحي عني به معظم الدارسين للأدب الجزائري. و قد تجاوب الشعر إلى حد كبير مع هذه النزعة التي تهدف إلى إيقاظ الشعب، والرفع من شأنه حتى يعود إلى الركاب التي تخلّفعنها جهلا و أمية، و قد تمكن رمضان حمود من تقنّص هذه الحقيقة في بعض أشعاره حينما انبعثت منه صرخة مدوية أشبه بالنفير إذا حزب الخطب لعله يلاقي بها نفسا حيا في النيام الصرعى[4].

لكننا إن بحثنا عن الشعر الطرقي لا تكاد تحفل به الدراسات الحديثة إلا نادرا فقد أغفلت أشعارهم إغفالا، و ظلت تتردد داخل الزوايا المنغلقة على مريديها، و مرد ذلك إلى:

1 – هيمنة النزعة الإصلاحية التي غمرت الأدب الطرقي.

2 – اعتبار الأدب الطرقي و الشعر منه خاصة لا يرقى إلى مستوى البحث فضلا عن الكشف عن الجماليات. وهي خلفية لها أسس واقعية ،ولكن إن صدقت على البعض فلا يمكن أن تصدق على الكل.

3 –إغفال الشعر الطرقي بناء على مرجعيات تستهين بالشعر الطرقي لارتباطه بالخرافة و الشعوذة، فوجدنا أنفسنا و نحن نتصفح كتب الدارسين للأدب الجزائري، و كأنهم أهملوا سهوا مرحلة خصبة من هذا الشعر، فرأينا بأن مصير هذا الشعر لم يختلف عن صحافته التي أغفلها دارسوا المقالة، و كأن لم يصدر الطرقيون جرائدا إلا فيما ندر، ولا يُلجأ إلى كتاباتهم إلا حينما يلّح البحث إلحاحا، كذلك كان ظل جمعية العلماء المسلمين أشد تخييما على الساحة، فغمرت انجازات بعض المتصوفة ربما لأنهم سبحوا عكس التيار.

فكيف كان الشعر الطرقي الجزائري الحديث ، و ما هي مميزاته و خصائصه الفنية و هل كان شعرا ثريا بالأغراض؟ و ما طبيعة الموضوعات التي طرقها؟ وهل استطاع أن يحلق في الآفاق الروحانية الموروثة عن الجنيد وجلال الدين الرومي والحلاج وابن عربي أم أنه بقي لصيق التصوف الطرقي المغربي المغرق في الشطحات.

أولا:الأغراض المزدحمة في القصيدة الصوفية:

خلا الشعر العربي من الملحمة كما خلا من الشعر المسرحي ولذلك أسباب معروفة* وغلبت على مراسيمه النزعة الغنائية، وقد درج الأدباء العرب على تقسيم شعرهم بحسب أغراضه المختلفة، فكان عندهم شعر الغزل، والمدح، والرثاء، والهجاء، والوصف، والفخر، والحماسة ، والعتاب، والاعتذار، والخمر، واللهو، وما إلى ذلك مما هو تعبير عن ذات الشاعر في أملها وألمها، في حبّها وبغضها، في أسفها وفرحها[5] وموضوع الشعر الغنائي تجربة شخصية مرّ بها الأديب فانفعل بها، وعبّر عنها[6]

أ-الشعر الصوفي:

من المؤسف حقا ألا نجد أشعارا صوفية ذات بعد و دلالة في الجرائد الصوفية كلسان الدين والبلاغ ،والرشاد، تطرُق أغراض الصوفيين المعروفة كالحب الإلهي، الخمرة الإلهية ... إلا في النادر، و قد كانت الخواطر تمور بنا، و نحن نسعى لتقفي بعض الآثار التي عبّر عنها الشعراء السابقون فأبدعوا صدقا، و تخاذل عنها شعراء لاحقون فما حققوا شيئا ذا بال، وقلة حضور هذا الغرض بالذات يبرره ما يلي :

1 – التقليدية في التصوف، و الطقوس الزائفة، فلم يكن الشعراء يتذوقون التصوف بصفاء، فعادة ما يغلب عليها التصنّع خاصة و أن هذا المذهب اللطيف أو الدرجة الرفيعة في الدّين لا تأتى لصاحبها ما لم يدخل غمار التجربة و يتذوق "وإذا كان الشيوخ قد انحدرت إليهم القداسة بالوراثة، المشيخة بالتوصية"[7]، فالأتباع كذلك يرثون هذا الزيف، وقديما قيل فاقد الشيئ لا يعطيه.

2 – بساطة التعبير و سذاجته، فلم تبلغ تعابيرهم مستوى الرموز الصوفية التي تحتاج لمراس و حنكة قلّما يجود بها شاعر.

الإستثناء في هذا المقام يصنعه الشيخ ابن عليوه صاحب الزاوية العليوية بمستغانم الذي نشر ديوانا صوفيا في العهد الإستعماري،موشحابتعابير القوم ورموزهم، ولا يزال هذا الديوان يتكرر طبعه على يد المطبعة العلاوية بمستغانم، وقد بلغ طبعته السادسة حاليا ويضم إلى جانب أشعار ابن عليوه تراتيلا شعرية لشيخه البوزيدي، ومختوما أيضا بأشعار حفيده الذي تسلم مشعل الطريقة بعده ونقصد بذلك الشيخ عدة بن تونس.

وقد يذهل المرء لكثرة الأشعار المودعة في هذا الديوان حتى ليحسب للوهلة الأولى أن الشيخ ابن عليوه كان شاعرا فعلا، لكن هذا الحكم يكاد يضمحل حين تنازع هذا الديوان أشعار شعبية بالدارجة لقيت مكانها إلى جانب صنوتها الفصيحة.

والديوان يحتاج حقا إلى وقفة خاصة متمهلة تستدر ما فيه من زاد معرفي صوفي وتستقطر المنظور الإبداعي على العهد الإستعماري، ولكن المقام الضيق يدعونا إلىالإقتصار على بعض الأشعار التنويرية.

يقول ابن عليوه:

ألا أيها العشاق للمحضر الأعلى عيدونا بوصلكم روموا فينا وصلا

فهذا وقت النهوض للمقام الأسنى فلله الحمد حيث كنا له أهـــــــــلا[8]

ويتجلى في هذه القصيدة –التي تجاوزت عدد أبياتها المئتين فغدت أقرب للمعلقة– نزعة الإفتخار بالتصوف والإنتساب لأهل السلوك

فنحن ملوك الأرض من حيث قربـــــه بذلنا نفوسا في حبّه ثم الأهلا

فكنا في ضوء الشمس والغير في الدجى لنا بصر حديد حيثما تجلَـــــــــى

وتتجلى المبالغات التعبيرية الأقرب من الشطحة في هذا الديوان وهي التي أسالت أقلام الكثير من المصلحين في ذلك الوقت فواجهوا الديوان بالانتقاد تارة وبالتهكم على بعض الأبيات تارة أخرى.

تا الله نوم العارف يغني عن ذكره فكيف بصلاة العارف إذا صلى

يكون بسقف العرش حالة قربـــــه واقف مع الإله يالها من حالا

وقد لقيت هذه الأبيات وغيرها حملة نارية من قبل أنصار جمعية العلماء المسلمين لأنها تنضح بالحلول أحيانا وأحيانا أخرى تشتط بالمبالغات، وقد سجل أحمد حماني ذلك بعيون ثاقبة في كتابه صراع بين السنة والبدعة فيقول عن هؤلاء الأبدال" وهم عنده أيقاظ وان ناموا، ثم إن نومهم يغني عن ذكرهم.إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تنام عينه ولا ينام قلبه حقا، ومع ذلك فما استغنى أبدا عن الذكر وما سوى بين الذكر والغفلة، والله يقول:"ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا" والذكر غذاء القلوب وأمانها:"ألا بذكر الله تطمئن القلوب"*

ونراه في قصيدة أخرى يذكر الخمرة تلك المعشوقة الروحية المعبرة عن الوصل أو مرحلة القرب التي شغف بها أتباع الطريق، ويسير في درب المتصوفة السابقين في اعتبارها نشوة قديمة أزلية.

خمرنا خمر عشق كان من قبـــــل آدم

أسكرنا يا صديقي من زمان تقـــــــدم

قد رمانا من شاهق من وجود للعـــــــدم[9]

وفي ديوان البوزيدي المستغانمي** شيخ ابن عليوه يتردد الخطاب الصوفي ذاته بمفرداته ومكنوناته، فيقول:

أيا روضة العشاق قد هيجت مهجتي أيا حضرة الإطلاق فيضت صبابتي

سقتني كأس الهوى من طيب الخميرة جلوت بها السوى عن نور البصيرة

وتترد في أشعار أيضا الخمرة العتقةونشوتها القديمة كما ترددت عند مريده وتلميذه ابن عليوه:

غرست غصن الهوى في قلبي ومنجتي وعندي منها نشوة كانت قبل نشأتي[10]

أما أشعار عدة بن تونس حامل مشعل الطريقة بعد ابن عليوه فجاءت محملة بالإمتنان للشيوخ الأوائل مادحة أياهم بشتى الفضائل، فكان عنوان الديوان : آيات المحبين في مقامات العارفين، ويتغنى الشاعر بالخمرة التي أفنت جسوم الطالبين لقاء الحظوة بالقرب والكشف:

قد طابت حياتي من بعد مماتـــي بشهود الذات في هذا الآفـــــاق

تجلت شموسي من روحي ونفسي فنيت عن حسي برؤية الساقـــي

خمرتي القديمة سقيتها لمـــــــا محوت الأنام في بحر الإطـــــلاق

في بحر المعاني غبت عن أكوانـــي لا ترى من أيني إلا الحي البـــاقي

قد زالت حجبي وصفا مشروبـــــي رأيت محبوبي من غير اختـــــلاق[11]

فمن يكون المحبوب الذي رآه الشاعر يا ترى؟ تلك خمرة قد أهوست المتصوفة فغامروا في القول فهل يبقى الإنسان إنسانا عندما تزول الحجب؟

ليس المقام مقام محاكمة لشطحات المتصوفة، إنما هو حديث عن بعض معانيهم المتدفقة من كلماتهم، ولكن هذه المعاني الباطنية الخادشة المريبة هي التي جعلت تعابيرهم يكتنفها الغموض، وتبقى محصورة في نطاق ضيق بين المريدين ولا تشيع على المستوى الواسع بل تلقى حملات متشددة من قبل المصلحين وزعيمهم ابن باديس.

وتطالعنا أشعار أخرى مثل ما نظمه أحمد الأكحل* في قصيدة ذات بعد رومنسي صوفي معنونة بـــ "عند الغروب" تدخل ضمن إطار التغزل الصوفي. فبدأ قصيدته بالتأمل في مكنونات الله، و بديع خلقه فيستحثه جمال الشمس، و غروبها فيحرك فيه أكثر من شعور :

كُلُّ شَيءٍ نَحوَ الغُرُوبِ يَسِيـــــرُ وَ المَسِيرُ إلَيهِ شَيءٌ يَسِيـــــــــــرْ
كُلَ يَومٍ تَرَى الغَزَالَةَ تَنـــــــأَى فِي المَسَاءِ وَ فِي الصَبَاحِ تَـــــزُورْ
إذ تَرَاهَا فِي صُفرَةٍ مَعَ ذُبُـــــولٍ فِي الغُرُوبِ و فِي الشُرُوقِ تُنِيـــــــرْ[12]

هذه اللحظات التأملية، و الإحساس المرهف نحو موجودات الطبيعة فطرة مكنونة في الشعراء، يفجروها بين الحين والأخر، ومن خلال هذه المقدمة يفصح الشاعر عن مكنونه:

صَاحِ أَينَ تَسِيرُ بِاللهِ هَذِهِ الشَـــ مسُ عِندَ الغُرُوبِ وَ أَينَ تَصِيرْ؟
ثُمَ تَبدُو مِن خِدرِهَا فِي الصَبَاحِ يَتَقَدَّمُهَا السَّنَاءُ السَفِيـــــــــــرْ

تساؤل مشروع لدى الشاعر الذي يبحث كشاعر الطلاسم إيليا أبي ماضي:

قَدْ رَأَيْتُ الحُسْنَ يُنْسَى مِثْلَمَا تُنْسَى العُيُـــــــــــــوبْ
وَ طُلُوعُ الشَّمْسِ يُرْجَى مِثْلَمَا يُرْجَى الغـــــــرُوبْ[13]

و يتخذ حقيقة الغروب و الأسف عليه، كدلالة على الوصال و الانقطاع.

لَيْتَ شُعُورِي هَلْ يُرْتَجَى الوَصْلُ مِنْ بَعْدِ الذَهَابِ و هَلْ يَعُودُ البَشِيـــــــــرْ
وَيَعُودُ الوِدَادَ وَ السَعْدُ وَ الاقـــــ بَالُ و اليُمْنُ و المُنَى و السُـــــــرورْ

ومن هنا يكشف الشاعر عن مدى ارتباط الغروب بزمن الوصال، فإن ظهور الشمس بالنسبة له هو زمن سطوع الحقيقة الإلهية، والغروب هو انطفاء النفس و شحوبها عن الوصل الإلهي، و لكن بالمقابل يمثل الغروب زمن الوصال أيضا حيث تتناجى القلوب ليلا، و تقترب من الذات العلوية و تتنفس دعاءا و تسبيحا، فالغروب اقتراب من الخالق وهو زمن مقدّس لدى العبّاد و الزهّاد و المتصوفة، حينما تنام الأعين و تخفّ الحركة، يُتعبد بالسكون. وقد ميزت هذه الأسئلة الصوفية الشعر الصوفي، ويربطها البعض بـــ "نزعة الشكّ التي تلمّ بالمتصوف للوصول إلى الحقيقة، والفناء فيها"[14]

وينطلق الشاعر في مناجاة الحق سبحانه و تعالى، لأن الزمن يناسب محفل النجوى والتوسل :

يَا بَشِيرَ المُنَى المُقَدَّسِ عُرْفًا لِسَعُودِ أَحْمَد و الصُدُودُ خَطِـــــــيرْ
ذَا أَوَانُ الوِصَالِ يَا نُورَ قَلْبِي أَنْتَ بِالعَطْفِ و الحَنَانِ جَـــــــدِيرْ
أَنْتَ رُوحُ الحَيَاةِ بَلْ أَنْتَ سِرٌّ الكَوْنِ أَنْتَ العَزِيزُ أَنْتَ البَصِيـــــــرْ

و يبدو أن أحمد الأكحل قد خالف شعر الأقدمين إذ تحدث عن الظواهر الطبيعية دون أن يسهب في القول أو يطيل في البيان، وهو يتحدث عن الطبيعة بشغف الشاعر، و خشوع المتعبد، و يخلع عليها حلة من شعوره وعبقا من عواطفه"[15]، فاتخذ الطبيعة الممثلة في الشمس ليعبر عن حالة الوصال المشغوف بها.

و غير هذا الشعر قليل، فالظاهر أنه تراجع في جريدة البلاغ كثيرا–وهي من أهم صحف التصوف وأكثرها تعميرا– وغيرها من الصحف لدخولها في حرب كلامية أعمت البصائر، وجعلت كل حزب يلتجأ إلى الدفاع عن تنظيمه. فلم تظهر لا صورة التصوف السني و لا صورة التصوف الخالص* بوضوح في أشعار البلاغ.

و تعود قلة هذا الشعر إلى " ثورة الحركة الإصلاحية على التصوف الخالص ثم تعمم على كل ما يمت إلى التصوف بصلة سنيا كان أو غير سني ... ولتطور الحياة السياسية، و زحف الحضارة الغربية وعقلانيتها."[16]

و قد أصبح من ينشد الشعر الصوفي يجد نفسه وحيدا منعزلا فيشعر بنوع من الحرج و الشفقة من سخرية الناس منه، عكس ما كان يمثله الشاعر الصوفي في الزمن الماضي، بكونه محل تقدير و احترام و حتى تقديس.

إن خفوت شعر التصوف جعله يتمظهر في غرض آخر هو الوعظ، فما حظ هذا اللون عند الشعراء الجزائريين الذين مالوا إلى الطرقية فكانوا مريدين أو محبين ؟

ب.الشعرالوعظي:

ظهر غرض آخر يمكن تسميتها الوعظيات والإرشاد، فهو شعر روحي فيه وعظ وتذكير ودعوة إلى العمل لما بعد الموت، واعتراف بالحساب والجزاء ووجود إله قادر عالم بسرائر خلقه، وفيه "تناول لأحوال النفس الإنسانية وخصائصها، وبيان لطرق علاجها، وكيفية التخلص من ربقتها وسلطانها، وفيه أيضا حكمة تشتمل على نظرات في أمور الحياة والنّاس"[17]وقد اتخذ الشعراء الغرض كوسيلة لتأكيد عقيدة الطرقيين، ودرأ الشبهات عنها، واشتمل في طيّاته على انتقادات تتفاوت درجة نحو الذين يسعون برأيهم إلى تقويض الدّين، ويفهم من القصائد المدوّنة في هذا الشأن أنّها تستهدف طائفتين المصلحين أو المتفرنجين.

ويمكن تصنيف هذه القصائد ضمن خانة الحملة الدعائية للطرقية، وكذا الحرب الكلامية التي رصدت لها كلّ الإمكانيات الأدبية شعرا ونثرا، لإحقاق نظرة الصوفيين وشرعنتها في المجتمع الجزائري أو على الأقل الإبقاء عليها في ظل الاكتساح الإصلاحي، ويمكن إدراج ما نظمه بوزيدي لخضر بن الصحراوي في هذا السياق:

فَيَا فَوْزَ مَنْ أَدَى الشَهَادَةَ مُذْعِنًا وكَانَ هَدْيُ القُرْآنِ أَعْظَمَ سُؤْلِهِ

وأَدَى حُقُوقَ الخَلقِ سِراً وجَهْرَةً ولَمْ يَكُ مُخْتَالا عَلَيْهِمْ بِفَضلِـــــــهِ

فالفئة الثانية هي التي تتبع هواها، وتخالف هدي القرآن، ستمنى بالذل والهوان كجزاء على التكبر والتبختر، وليظهر الشاعر سبيل الاقتداء فيدعوهم إلى الــتأسّي بالصحابة لحلّ مشكلات الحياة:

وكُونُوا كَمَا كَانَتْ الصَحَابَةُ أمّـــــــةً عَلَى الحَقِ أُمَةً تَفُوزُوا بِفَضْلِـــــــــــهِ

وينتقل على شاكلة المتصوفة في الدعوة إلى الارتباط بالمرشد، وعدم الخروج عن طوعه، وهي عقيدة بارزة في نفوس الصوفيين على اعتبار أنّ من لا شيخ له فشيخه الشيطان، ومن عادة الصوفيين اشتراط مرشد يستطيع أن يُؤمّن تطبيق هذا السلوك، وأن يوجه"المريد" في اجتيازه لمقامات السفر الدنياوي.[18]

وانْ قَامَ فِيكُمْ مُرْشِدٌ يَسْتَحِثُكُـــــــــمْ عَلَيْهِ فَلا تَلْوُوا العِنَانَ بِخَذْلِـــــــــــــهِ

ويحرص الشاعر على الالتزام بكلمة الحقّ، لأنّها باب لتخليد صاحبها، ووهب الحياة له:

ولا تَحْسَبُوا مَنْ مَاتَ فِي الحَقِّ مَيتًا فَقَدْ عَاشَ مِنْ بَعْدِ المَمَاتِ كَقَبْلِـــــــــــهِ

وإن كانت هذه القصيدة تتسم بالعمومية في الوعظ، فإن هناك قصائدا أخرى تضمنت نفسا ثائرا، يردّ صولات الصائلين التي استهدفت المتصوفة، مما يقربها من شعر النقائض، وقد ظهر بعضه بين شعراء الإصلاح والصوفيين، وتهاجم فيه الطرفان وتراشقا "وبعضها لا يدلّ على شاعريّة قوية بقدر ما يدلّ على تبادل التهم، والدفاع عن الرأي والموقف وعلى أنّ{الحزبين} كانا يختصمان، ويجعلان من الشعر لسانا، أو هو بمثابة الصحيفة التي تدافع عن مواقفهما وأفكارهما[19]

و من ذلك قصيدة من إمضاء "ح س" قدمتها البلاغ بهذه التوطئة:{يعز علينا أن يتنازل الأستاذ صاحب الإمضاء لمخاطبة المهارشين و المشاغبين، و لكن حضرته أبى إلا أن يكون في صفّ المدافعين عن حوزة الحق، الدابين عن حياض الفضل والكرامة الشريفة.}

و لا خَيْرَ فِيمَنْ أَنْكَرَ الحَقَ خِفْيَةً فَأَحْرَى جِهَاراً إذَا غَدَا فِي الوَرَى وَرَا

لَحَا اللهُ فِيمَنْ أَضْحَى يُنَفِّرُ قَوْمَهُ مِنَ الأَوْلِيَاءُ إذْ صَارَ عَنْهُمْ مُؤَخَـــــــــرَا

فهو يشنّ هجوما لاذعا، فيجعل من يُهوِن شأن الأولياء من الخوالف ويترع عنه كل شأفة خير، بعد أن مسح لسانُه الجافي كل خصاله.

ثم يدافع عن الأولياء ناسبا لهم كل الصفات الفاضلة، و جاعلا إيّاهم أرباب الهدى فيقول:

و مَا الحَقُ إلا مَا بِهِ الأَوْلِيَاءُ اهْتَدُوا و صَارُوا بِهِ يَهْدُونَ لِلْحَقِ فِي الوَرَى

و مَنْ يَزْعُمُ الإرْشَادَ فِي غَيْرِهِمْ غَدا فَقَدْ ضَلَّ عَنْ نَهْجِ الهُدَى عِنْدَ مَنْ دَرَى

و تقديس الولي يشكّل لبنة أساسية في الفهم و الذوق الصوفي، واتباع هديه شرط في النجاح الدنياوي و الأخروي، هذه القداسة الممزوجة بالتعاويذ والطقوس، قد رفضها أهل الإصلاح الجزائريين، وعلى رأسهم الشيخ ابن باديس، فأبعدوا عن الأذهان هالة التقديس للأولياء، لأنّهم بشر ككلّ البشر، والخضوع لهم عبودية، ورقّ مستحدث للاستعمار، ففرنسا من خلال بعض الزعماء وأولياء الطرق الصوفية عقدت "ولاءات مشبوهة"[20] وهذه الطرق إلى جانب الإسلامية المندمجة "عنوانان بارزان باختلاف منهجي، واتفاق وظيفي آل إلى الخلل الذي تشكلت به عقلية المتلقي أو المريد."[21]

ويغدو الشاعر إلى كشف الزيف، الذي لحق بفتية آمنوا بالمدنية الحديثة، فتخلفوا عن مبادئ السلف، بتغافل منهم وسذاجة:

وفي عصرنا هذا تنطع فتيـــــة بِطَعْنِهِمْ فِي الدِّينِ تَجَبُّـــــــــرَا

وكُلُّهُمْ بالشَتْمِ واللَعْنِ فِيهِـــــــمْ تَجَاهَرَ وهُوَ فِي هَوَاهُ تَبَخْتَـــرَا

ومَا شَعَرَ المَحْرُومُ مِنْ أَهْلِ عَصْر بِمَا هُوَ فِيهِ ضَلالٌ بِهِ جَـــــرَى

ويستهول موقع هؤلاء الفتية وأتباعهم، بخروجهم عن مقام الولاية وإنكارها سيدخلون برأيه من الباب الواسع إلى عالم التنصّر، وان بدا في ناظرهم انتصارا:

يَرَى أَنَّهُ لِلْحَقِ صَارَ نَاصِـــــــــرًا وكَمْ مِنْ بَغِيضٍ مِثْلُهُ قَدْ تَنَصرَا

وَلا رَأْسَ مَالِهِ عِنْدَهُ غَيْرُ دِينِـــــــهِ وقَدْ ضَاعَ فِيهِ مُذْ أصْبَحَ مُنْكِرَا

وفي مقام الوعظيات دائما، تطالعنا قصيدة بإمضاء "عالم جزائري أزهري"، لم يذكر اسمه، عنوانها العكاظيات، تضمنت إرشادات تدعو أبناء الجزائر إلى الحذر من بعض الجرائد البراقة، المختفية وراء عناوينها بفساد آسن، ودمار هامر:

ألا يَا ابْنَ الجَزَائِرْ لا تُعَاندْ ولا تَرْكَنْ إلَى بَعْضِ الجَرَائِدْ

ولا تَغْتَرَ بِالعُنْوَانِ وانْظُـــــرْ إلَى مَا تَحْتَهُ تَلْقَ المَفَاسِـــدْ[22]

ثم ينتقل بعد إشارته التحذيرية إلى بيان فضل الزوايا، ودور شيوخها في استجلاب العلم والنفع للأمة، وهنا يظهر أن الصحف المقصودة هي تلك التي ناصبت الطرقيين العداء، كالشهاب، والمنتقد وغيرها، مما أصدره رجال الإصلاح، فكانت حربا على الشعوذة، والدجل، والخرافة:

ويَعْلَمَ أنَّ هَاتِيكَ الزَوَايـــَـا مُشَيَّدةٌ لِطُلاب الفَوَائـــــــــدْ

وتَرْقِيَةِ النُفُوسِ لِمُسْتَوَاهَـــا وارْشَادِ الأَقَارِبْ والأَبَاعِـــــــدْ

مَشَائِخُهَا طَرِيقَتُهُمْ حَدِيـــثٌ ومُحْكَمُ غَايَةٍ مَا تَمَ زَائـــــــــدْ

ومن هنا نستنتج أنّ الأشعار الوعظية كانت امتداد للطريقة، واستمرارا لنصرة الزاوية تحت شعار إسلام الأجداد، وتقاليد الرجال السابقين على المستوى المرئي، أما في شقّها المتواري فكانت سيلا عرما فائرا في وجه الإصلاحيين، الذين استباحوا طقوس بعض الزوايا التي سمتها تجاوزا بالدين، حتى قال دعاتهم في جرائدهم "دين خرافي خير من لا دين."

وقد اعتمدوا في مقام الوعظ على إظهار مثالب وعبثية الخارجين عن نطاق الزاوية والولي، وتأثيم أفعالهم وإحباط أعمالهم، حتى يعودوا إلى جادة الصواب، فكان نظمهم الوعظي حملة شعواء لا هوادة فيها.

هذه بعض الأغراض الشعرية التي حوتها صحف التصوف،وجاد بها الناظمون والشعراء. إلى جانب ذلك وجدنا مزجا بين الأغراض في القصيدة الواحدة، فتتعدد موضوعاتها تبعا لدوافع الشاعر ولاضطراب مشاعره تتداعى عليه الأحاسيس وتتهاطل الأفكار، فتبدو القصيدة مثل "كون صغير تحشر فيه الأفكار حشرا، وترصّ المعاني فيه رصّا"[23]

فهرس المراجع والمصادر

(1) غنيمي هلال:النقد الأدبي الحديث ،مرجع سابق ص:461

(2) صالح خرفي:شعر المقاومة الجزائرية، ط1 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،د.ت،ص: 45

(3) عبد الله الركيبي:الشعر الديني الجزائري، ط1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع1981، ص:11

(4) صالح خرفي:رمضان حمود،ط1، الشركة الوطنية للكتاب الجزائر1985،ص:23

*لمزيد من التفصيل يرجع إلى: الأدب المقارن لـــ:محمد رمضان الجربي،ط2،دار الهدى للطباعة والنشر الجزائر2002ص:87-89.

(5) ينظر حنّا الفاخوري:الجديد في الأدب العربي،ط6،دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر،بيروت،1967.

(6).محمد رمضان الجربي: الأدب المقارن،ص:91

(7) صالح خرفي:شعر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق ص:117

* أحمد بن يحي بن أحمد الملقب بالأكحل ولد سنة 1906 شاعر جزائري

8 ديوان أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي،ط6 طباعة جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية، مطابع الشرطة القاهرة مصر 2009،ص:07

* يراجع أحمد حماني:صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس،ج1، ط1 دار البعث 1984ص:206

(9) المصدر نفسه،ص:21

**اسمه محمد بن الحبيب البوزيدي المستغانمي ولد سنة 1824 وتوفي سنة 1909 وانتقلت المشيخة بعده إلى ابن عليوه.

(10) ديوانه بعنوان: العهد الوثيق للسالك الصديق ملحق بديوان مصطفى العلاوي،ص:111

(11)الشيخ عدة بن تونس المستغانمي من مواليد 1898، توفي سنة 1958، الديوان ص: 163

(12) البلاغ،عدد:23،470رجب1358(15-9-1939)

(13) إيليا أبو ماضي:ديوان أبي ماضي،د.ط،دار العودة،بيروت1982

(14) عبد الله الركيبي:الشعر الديني الجزائري الحديث،ص:243.

(15) أبو القاسم الشابي : الخيال الشعري عند العرب، سراس للنشر تونس ،ص 44.

* من شطط التصوف الخالص:وحدةالوجود،تقديس الشيخ ،لبس الخرقة،الانعزاللعبادة،أما التصوف السنّي فهو بريئ من ذلك.

(16) عبد الله الركيبي:الشعر الديني الجزائري الحديث،ص:311

(17) حنّا الفاخوري:الجديد في الأدب العربي، ص:567-568.

(18).سيّد حسين ناصر:الصوفية بين الأمس واليوم،ترجمة كمال خليل اليازجي،ط1، الدار المتحدة للنشر1975،ص:23.

(19) عبد الله الركيبي:الشعر الديني الجزائري الحديث،ص:60

(20) عمر أحمد بوقرورة:بناء النسق الفكري عند البشير الإبراهيمي، دار الهدى الجزائر 2004،ص:41.

(22) البلاغ،عدد354-2ذو القعدة1355(15-1-1927).

(23) أبو القاسم الشابي:الخيال الشعري عند العرب، مرجع سابق ص:113.